كتب بالإنجليزية

البابليون الجدد: تاريخ اليهود في العراق الحديث

New Babylonians: A History of Jews in Modern Iraq

Orit Bashkin

Stanford, California: Stanford University Press, 2012. 328 pages.

مضى على الأقل ثلاثة عقود منذ الخروج الجماعي ليهود العراق إلى إسرائيل (١٩٥٠ ـ ١٩٥١) قبل أن تظهر دراسات عن تلك الطائفة التي عاشت قروناً في بلاد ما بين النهرين أو ميسوبوتاميا (Mesopotamia) باليونانية. ويصعب توصيف الكتب القليلة لرجال الموساد والمبعوثين الصهيونيين إلى العراق التي ظهرت في إسرائيل في خمسينيات القرن الماضي وستينياته، بأكثر من كونها تمجيداً لنشاطات هؤلاء التي لم تحظ في الواقع بكثير من التقدير والتجاوب من الطائفة اليهودية نفسها.

وكغيرهم من الطوائف الأصلية من يهود الشرق، لم يختبر يهود العراق تجربة اليهود في أوروبا ممّن واجهوا الاضطهاد واللاسامية. فقد ظلت هذه الطوائف الشرقية بعيدة عن الصهيونية السياسية التي تبنّت منطلقات غريبة عنها كالشتات وإسباغ "سمة قومية" على الدين اليهودي، كما لم يكن في حساب هذه الطوائف الشرقية يوماً مغادرة أوطانها والهجرة إلى فلسطين.

ولعل مصدر الاستغراب في غياب الدراسات بشأن عملية التهجير القسري للطائفة اليهودية العراقية يجد تفسيره في وقع الصدمة الناجمة عن ظروف الاقتلاع والتشتت التي أصابت تلك الطائفة المتجذرة عبر التاريخ بهجرتها غير المتوقعة والسريعة إلى إسرائيل. فقد كانوا ضحية "خديعة" ساهمت فيها قوى عالمية وإقليمية تمثلت أساساً في الصهيونية العالمية المدعومة من القوى الاستعمارية الغربية، فضلاً عن أطراف عربية على رأس كيانات سياسية ناشئة حديثاً ومحكومة من هذه القوى إيّاها.

كان على المهجّرين من يهود الشرق إلى إسرائيل أن يتقبلوا الرواية الرسمية الإسرائيلية الغريبة عنهم بشأن مفهوم "الشتات" و"الاضطهاد" في مجتمعاتهم الأصلية كما في أوروبا، كما كان عليهم أن يتنكروا لثقافتهم وتاريخ تعايشهم المشترك الطويل

في المجتمعات العربية والإسلامية. وبدأت توزَّع مذكرات مكتوبة بخط اليد لحياتهم في "المعبروت" أو مخيمات الاستقبال في إسرائيل، من دون أن تجد طريقها إلى النشر. وكان ذلك قبل أن تبدأ حركة "الفهود السود" التي رفعت أصوات احتجاج يهود الشرق بصورة علنية في مطلع ستينيات القرن الماضي.

وبدأ يظهر عدد من كتب المذكرات لبعض مثقفي الجيل الأول، وأغلبيته بالعربية، وهو مذكرات مفعمة بالحنين إلى بلادهم الأصلية مع تحاشي ما يتعارض مع الرواية الرسمية الإسرائيلية بشأن تعايشهم في المجتمعات العربية والإسلامية، أو فيما يتعلق بتهجيرهم إلى إسرائيل. غير أنه في الأعوام الأخيرة بدأت تظهر دراسات لأكاديميين وإعلاميين، وأفلام وثائقية، جلّها من أعمال الجيل الثاني من اليهود العرب، وبعضهم من أصول عراقية، وهي دراسات تثير الشكوك في صحة الرواية الصهيونية ومدى مواءمتها لحالة يهود الشرق، كما لو أن تلك الطوائف بدأت تكتشف نفسها من جديد.

يمكن اعتبار الكتاب الجديد للأكاديمية الأميركية أوريت باشكن أنه محاولة اختراق ضباب التضليل والإهمال الذي أحاط التاريخ الحديث المعقد والمضطرب ليهود العراق. وقد اعتمدت باشكين في كتابها على مصادر متعددة كان بينها: أدبيات منشورة بلغات متعددة، ومواد وثائقية وإعلامية، علاوة على ما وفّرته مقابلات أجرتها مع أعضاء من الطائفة من مادة أغنت الكتاب.

واعتمدت باشكين في دراستها مقاربة نقدية لما سمّته "dehistoricization"، أي عملية إعادة كتابة تاريخ تلك الطوائف الشرقية من منظور صهيوني يلفّق تاريخها، ويحطّ من تراثها، وينكر حقيقة التعايش الممتد عبر قرون بين المسلمين واليهود بما فيها من ثقافة ورؤى مشتركة لمستقبل أوطانهم كما في حال العراق الحديث على سبيل المثال.

وتشير الكاتبة صراحة في البداية إلى أنها في معالجتها موضوعها لا تفسح مجالاً للنوستالجيا، أو استعادة الماضي على أنه "جنّة وهمية"، وإنما هي ببساطة تسعى لـ "فحص وتوثيق فترات عاشها اليهود والعرب ليس كأعداء... وفحص مدى تأثير العناصر الثقافية والتنوع العرقي والديني في المجتمع العراقي في خلق تلك التجربة الفريدة ليهود العراق" (ص ٢٣٧).

وتشير الكاتبة في مراجعتها لأعمال مثقفين يهود بارزين مثل: أنور شاؤول، ومير بصري، وسليمان درويش، ونسيم رجوان، إلى أن هؤلاء اعتبروا أنفسهم وطنيين عراقيين. وفي رأيها، فإن الكتّاب اليهود يعتبرون العروبة بمفهوم القومية والوطنية العراقية تعايشاً، كما أنهم يعتبرون أن التاريخ والتراث الأدبي العربي ـ الإسلامي هما تاريخهم وتراثهم. وكان الشعراء والفنانون والموسيقيون من اليهود منغمسين تماماً في الثقافة العربية، ويشعرون بأنهم جزء من المجتمعات العربية الإسلامية التي يعيشون فيها. أمّا المثقفون اليهود من الجيل الأصغر، أمثال: ساسون سوميخ، وشمعون بلاص، وسامي ميخائيل،

ممّن تحولوا إلى الكتابة بالعبرية بعد هجرتهم إلى إسرائيل، فظلوا على صلة بالثقافة العربية ينهلون منها في أعمالهم، ويعتبرون أنفسهم يهوداً عرباً.

صحيح أن يهود العراق آثروا الابتعاد عن الانخراط في العمل السياسي، وفضّلوا العمل فيما هم ماهرون فيه من الاشتغال بالتجارة، وحرصت قياداتهم التقليدية على الاحتفاظ بعلاقات قوية مع البريطانيين والنخب السياسية المتنفذة في إبّان الحكم الملكي، إلاّ إن عزوفهم عن العمل السياسي بدأ يتغير مع التطورات الداخلية والدولية الكبرى التي برزت في أوروبا مع اندلاع الحرب العالمية الثانية.

وشعر مثقفون يهود من الجيل الجديد بأن عليهم الانخراط في العمل السياسي، وترى باشكين أن هذا التطور "جاء بدافع الإحساس بالانتماء إلى وطنهم العراق." وبادر عدد منهم إلى الالتحاق بالتدريج بالحزب الشيوعي العراقي والاشتراكية الديمقراطية ممثلة في "جماعة الأهالي". وترى باشكين أن الحزب الشيوعي جذب الشبيبة الصاعدة المتعلمة من اليهود باعتباره حزباً غير طائفي، فضلاً عن أنه جزء من حركة عالمية (ص ١٤٨). وعندما فشل الحزب في الحصول على ترخيص رسمي خلال فترة فريدة وقصيرة الأمد من الليبرالية، شهدتها الحياة السياسية في سنة ١٩٤٦، تمكّن الحزب من الحصول على ترخيص رسمي بإنشاء منظمة بدت أقل إثارة للجدل هي "عصبة مكافحة الصهيونية".

وفي الوقت الذي تعبّر باشكين عن إعجابها بالعمل الريادي والموسوعي لحنّا بطاطو بشأن الحزب الشيوعي في العراق، فإنها توافقه الرأي بأن اليهود لم يكونوا أعضاء في المكتب السياسي للحزب، ولم يتولوا أياً من المراكز القيادية إلاّ بعد اعتقال الأمين العام ومؤسس الحزب يوسف سليمان الملقب بـ "فهد". وعلى الرغم من صحة هذا التقدير، فإن باشكين ترى أن اليهود أدوا دوراً مهماً وحيوياً في الحزب، ولا سيما النساء منهم ممّن قمن بالدور الأكبر في العاصمة بغداد عندما بادرت السلطات إلى القيام بحملة واسعة لتصفية الحزب. كما أنها تأخذ على بطاطو وجود إشارات ضمنية في كتابه توحي بأن بعض اليهود الشيوعيين كان يمكن أن يكون له اتصال بالمنظمات الصهيونية. والسبب في وجود تلك الإشارات هو الشكوك التي أثيرت أساساً في شأن شخصية ساسون دلال الذي تولى قيادة الحزب الفعلية في بغداد بعد اعتقال جميع الشخصيات القيادية في الحزب. كان ذلك في فترة عصيبة يمر بها الحزب بعد أن فرضت الحكومة العراقية، وعدد من الحكومات العربية، الأحكام العرفية بحجة الحرب في فلسطين في أيار / مايو ١٩٤٨، مستهدفَين في الواقع تصفية خصومهما من القوى الديمقراطية في بلاد الشام ومصر والعراق. وظل دلال محل خلاف بين الشيوعيين، بمَن فيهم الأعضاء اليهود في الحزب، بسبب ما رأوه من سلوك مغامر اتّبعه في فترة عصيبة عبر زج الحزب في تظاهرات علنية ساهمت في إضعافه. ومع ذلك يستبعد الشيوعيون اليهود أن يكون دلال متعاوناً بأي صورة

مع الصهيونيين، وقد جرى إعدام دلال على يد السلطات العراقية بعد اعتقاله. وفي الواقع، قامت "عصبة مكافحة الصهيونية" بدور كبير في توعية الرأي العام في العراق بشأن الطابع الكولونيالي للمشروع الصهيوني في فلسطين، وبشأن الرد على الدعاية الصهيونية، نافية أن تكون اليهودية حركة قومية سياسية تمثل اليهود، وإنما هي ديانة كباقي الديانات.

على صعيد آخر، سعت الحركة الصهونية لجذب عدد من الشبان اليهود، وخصوصاً بين الفئات الفقيرة والأقل تعليماً بعد أن جددت نشاطاتها في العراق مع سقوط حكومة رشيد علي الكيلاني القومية على يد القوات البريطانية وإعادة الحكم الملكي الموالي للبريطانيين خلال الحرب العالمية الثانية. وقد أوفدت الحركة الصهيونية من فلسطين آنذاك عدداً من المبعوثين من الموساد في محاولة لاستغلال أحداث العنف التي وقعت في بغداد، والتي أُطلق عليها اسم محلي هو "الفرهود"، وذهب ضحيتها عدد من اليهود في مطلع حزيران / يونيو ١٩٤١. وهناك وجهات نظر عديدة بشأن ما حدث، لكن ما ترجحه أغلبية المصادر أن "الفرهود" وقع في ظرف استثنائي غلبت فيه الفوضى وغياب القانون والنظام العام، وأن العنف لم يكن في الأساس موجهاً ضد اليهود بقدر ما كان ضد البريطانيين والحكم الملكي العائد على أسنّة رماحهم.

لم تعبّر باشكين عن آراء خاصة بها بشأن "الفرهود"، وإنما تركت الحديث لجيل المخضرمين من اليهود العراقيين الذين قابلتهم. فقد لاحظت أن الاستقرار والأمان مع عودة الحكم الملكي، والازدهار الاقتصادي الذي شهده يهود العراق في أثناء الحرب وبعدها، "أنستهم جروح الفرهود الذي محوه على ما يبدو من ذاكرتهم" (ص ١٨٥ ـ ١٨٦). وهو ما أكدته تقارير المبعوثين الصهيونيين التي اطلعت عليها باشكين، والتي تذكر أن الطائفة اليهودية لم يكن لديها الرغبة أو الاستعداد لمغادرة وطنها العراق وتبنّي النداء الصهيوني الغريب عن تاريخها وثقافتها؛ ومن أبرز الوجوه في الطائفة التي عبّرت عن ذلك: عزرا دانيال؛ إبراهيم الكبير؛ كبير الحاخامين ساسون خضوري.

وتلاحظ الكاتبة من المقابلات التي أجرتها مع أفراد من الجيل الذي وُلد في إسرائيل من أصول عراقية، أنهم يحملون صورة غير صحيحة عن حياة آبائهم في العراق، وعن علاقة أجدادهم بجيرانهم وأصدقائهم من المسلمين في مجتمع متنوع الأعراق والديانات. كما أنه يجري تلقين الطلبة اليهود من أصول عراقية تجربة وتاريخ اليهود في أوروبا كما لو أنهما مطابقان لحياتهم في العراق، وأن تاريخ اليهود هو واحد أينما عاشوا. طبقاً لذلك، فإن "الفرهود" دليل على أن علاقة اليهود بالمسلمين في العراق "هي كعلاقة اليهود مع غيرهم في أوروبا بحيث لا يمكن العيش معاً" (ص ٢١١). ولاحظت الكاتبة أن هؤلاء الطلبة باتوا يرددون مصطلحات جديدة عليهم مستوردة من الكتابات الصهيونية الأوروبية مثل "اللاسامية"

و"النازية" و"الغيتو"، ويجري استعمالها في سياق مختلف.

والملاحظ أن باشكين حذرة عند استعمال هذه المصطلحات التي يستخدمها بسخاء مَن يعيدون كتابة تاريخ الطوائف اليهودية في الشرق من الدارسين الصهيونيين، غير أنها تشير إلى أن الفلسطينيين الذين لجأوا إلى العراق يمكن "أن يكونوا حوّلوا عداءهم للصهيونية في بلدهم إلى عداء ضد يهود العراق... وضد الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين العراقيين المعارضين للتيار القومي العربي" (ص ١٠٤). وباشكين على ما يبدو لا تعرف العربية، وربما اعتمدت على مساعدين لها في مراجعة المصادر العربية، إذ إنها استندت إلى اقتباسات مجتزأة من مقالة كتبها أكرم زعيتر، وهو مثقف فلسطيني كان بين مَن لجأوا إلى العراق ملاحَقين من البريطانيين خلال انتفاضة الفلسطينيين الكبرى ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩. وفي تقديري، فإن ملاحظة باشكين بحاجة إلى وضعها في السياق التي وردت فيه.

أمّا مقالة زعيتر، كما يوضح هو نفسه، فجاءت في سياق ردّه على مقالات صحافية تهاجمه كما تهاجم آخرين من الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين من القوميين العرب، وتصفهم بأنهم "مرتزقة يسعون لأخذ وظائف العراقيين."[١] وكان قسم من هذه الصحف، في الواقع، يعكس وجهة نظر الفئة الحاكمة التقليدية الموالية للبريطانيين، بينما كان جزء آخر منها يعكس وجهة نظر "مجموعة الأهالي"؛ وكلا التيارين اصطف إلى جانب الحلفاء، وخصوصاً بريطانيا خلال الحرب. أمّا القوميون فاحتضنوا رفاقهم الملاحقين من قبل البريطانيين والفرنسيين ممّن لجأوا إلى العراق، ورأى هؤلاء القوميون أن تعاونهم مع الألمان، أو على الأقل رفض التعاون مع البريطانيين، يفتحان أمامهم فرصة التخلص من البريطانيين والفرنسيين، وهذا موقف تبنّته عدة حركات تحررية ساعية للتخلص من الاستعمار في أماكن عديدة من العالم في تلك الأثناء، بما في ذلك القارة الهندية وأميركا اللاتينية وبعض المناطق في أوروبا كحال الإيرلنديين. وكان الصدام بين هذين التيارين متركزاً في العراق الذي أصبح في نهاية الثلاثينيات مركزاً للقوميين العرب القادمين من بلاد الشام ومصر، الأمر الذي زاد في اتساع الهوّة بين التيارين، وقد عملت القوى الكبرى المتصارعة على تسعير هذا الصدام بالدعاية والمال. ويذكر زعيتر أن المقالات التي هاجمته وزملاءه من القوميين العرب كانت "نتيجة الانقسام الفئوي بين القوى السياسية في العراق، والأيادي الأجنبية التى عملت على إشعاله بتمويله من حساب سرّي خاص لدى وزير الداخلية" الموالي للبريطانيين.[٢]

لم تخض باشكين في تحليل العوامل والظروف التي أدت إلى الخروج الجماعي ليهود العراق، لكنها رأت أن الهجرة الجماعية ليهود العراق لم تكن مفاجئة، وإنما كانت نتيجة "مسار" طويل جرى إعداده بعناية. وتُظهر الوثائق البريطانية الخطط

التي أعدتها الصهيونية العالمية ونفذتها الزعامات الإسرائيلية بمساندة قوى غربية كبرى.

وتقدير باشكين واقعي إذا ما استبعدنا الضحية الأساسية لهذا المسار، وهي الطائفة اليهودية نفسها التي تمسكت بالبقاء في وطنها بينما خطوط اللعبة تحاك وراء ظهرها. أمّا الحكومة العراقية الموالية للبريطانيين فكانت عاجزة عن مواجهة هذه الخطط، وقد استجاب بعض رموزها من السياسيين التقليديين، كما فعلت بريطانيا، لتعليمات الإدارة الأميركية في تلك الأثناء في ظل إدارة الرئيس هاري ترومان.[٣] وعززت الوثائق التي كشف عنها بعض الأكاديميين الإسرائيليين، وأبرزهم يهودا شينهاب، الاعتقاد أن القيادات الصهيونية في فلسطين وضعت خططاً لتهجير اليهود العرب، وخصوصاً العراقيين، على الأقل منذ سنة ١٩٤٢.[٤] وكانت الحكومة العراقية، كما الطائفة اليهودية، تعلقان الآمال على التوصل إلى تسوية سياسية في اجتماعات هيئة التوفيق الدولية تجنّبهما التداعيات الداخلية لهزيمة الجيوش العربية، بما فيها الوحدة العسكرية الرمزية التي دفع بها العراق إلى فلسطين في سنة ١٩٤٨، وتداعيات تصاعد التوتر والقلق التي أثارتها أنشطة عملاء الموساد في العراق لضمان تهجير اليهود إلى إسرائيل.

جاء كتاب باشكين على نقيض الرواية الصهيونية الرسمية لتاريخ يهود العراق، فبيّن تعايشهم المتجذر وأبرز عمق الثقافة المشتركة مع المجتمع العراقي خلافاً لما يُحقن به عقول النشء الجديد في إسرائيل الذي هو من أصول عراقية، من تمييز وقهر لليهود في المجتمعات العربية والإسلامية كما كانت الحال في أوروبا. وترى باشكين مخاطر هذا التوجه القائم على تغذية العداء على الهويات المركبة والمرتبكة أصلاً في المجتمع الإسرائيلي المحاط بالمجتمعات العربية والإسلامية، وهو موضوع تناولته الصحافية العراقية الأصل ريتشل شابي في كتابها الذي ظهر مؤخراً بعنوان "ليسوا بأعداء: اليهود الإسرائيليون من البلاد العربية"، والذي تناولت فيه علاقة يهود البلاد العربية في إسرائيل مع مجتمعاتهم العربية الأصلية.[٥]

كتاب باشكين إضافة مهمة إلى أعمال جيل جديد من الأكاديميين الشرقيي الأصل ممّن بدأوا يطرحون أسئلة صعبة عن دقة الرواية الصهيونية لتاريخ يهود الشرق، ومسألة الهوية، ومستقبل علاقة المجتمع الإسرائيلي بالمجتمعات العربية والإسلامية المحيطة. كتاب باشكين متوازن وموثّق جيداً، وقد عالجت موضوعها بفكر متفتح بعيداً عن الفرضيات المسبقة.

عباس شبلاق
باحث وأكاديمي فلسطيني

المصادر

١ أكرم زعيتر، "بواكير النضال: مذكرات أكرم زعيتر ١٩٠٩ ـ ١٩٣٥" (بيروت: مؤسسة الدراسات العربية، ١٩٩٤)، ص ٦١٦ ـ ٦١٨.

٢ المرجع نفسه، ص ١٣٤.

٣ عباس شبلاق، "الخروج الجماعي ليهود العراق، هجرة أم تهجير؟" (سيصدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية).

٤ Yehouda Shenhav, "The Phenomenology of Colonialism and the Politics of 'Difference': European Zionist Emissaries and Arab-Jews in Colonial Abadan", *Social Identities*, vol. 8, no. 4 (2002), pp. 521–544.

٥ Rachel Shabi, *Not the Enemy: Israel's Jews from Arab Lands* (New Haven; London: Yale University Press, 2009).

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الصراع العربي ـ الإسرائيلي

في ضوء المتغيرات العربية والإقليمية

تحرير

جميل هلال

٢٠٦ صفحات ١٢ دولاراً